الحذاء

خالد الشريقي

كان الوقت بعد المساء بقليل . .

ما انفك سليمان وهو يقف وراء طاولته الصغيرة ينادي على بضائعه الرخيصة :

- حلوى للأطفال . . . سكاكر . . . موالح . . .

اقترب (شَنْكَل) منه حذراً، وهو يقلّب أوراق اللعب بين يديه، كانت أنظاره تتأمل قطع الحلوى الصغيرة بنهم، لحق به فهيم مستنجداً، وفي اعتقاده أنه قد يفوته :

- انتظرني شنكل . . انتظرني . .

وقف شنكل أمام سليمان، تأمله قليلاً ثم قال :

- تعال نلعب سليمان . . ابدأ أنت باللعب إن أردت . . .

ضحك فهيم من أعماقه وهو يحاول حثّ سليمان على اللعب :

- ستربح سليمان هذه المرة . . العبْ . . ستربح . . على مسؤوليتي . . .

يعرف سليمان أن (شنكل) - كما يطلق عليه - لاعب قمار نصّاب، وأن هذا اللقب اكتسبه بسبب مهارته في اصطياد ضحاياه البسطاء، وأن فهيماً الغبي يحتمي به دائماً ويساعده في غراء من يصادفهم على اللعب، وتكون محصّلة مجهوده آخر النهار، بعض الليرات من شنكل، هي بالنسبة إليه كسب محترم يكفيه مصروف يومه .

نفر منهما سليمان باشمئزاز :

- ابتعدا عني . . لا تلهياني عن عملي . . ابحثا عن واحد غيري لا يعرف احتيالكما . . .

ضحك فهيم من أعماقه، أدرك عدم جدوى محاولة إغراء سليمان، قال :

- أنت بخيل يا سليمان . . لحمك مرّ . .

استطاع شنكل أن يمدّ يده بخفّة إلى طاولة سليمان ويخطف قطعة حلوى صغيرة، قال ضاحكاً وهو يبتعد مسرعاً قبل أن تصل إليه يد سليمان :

- لكن طعم هذه حلو . .

حاول فهيم أن يقلّد معلمه، لكن يد سليمان أدركته، صرخ به غاضباً :

- ابتعد أيها الغبي . . لعنكما الله . .

ضحك فهيم ولحق بشنكل . . في حين بدأ سليمان يرتّب بضائعه وهو ينادي عليها من جديد .

اعتاد سليمان أن يقف بطاولته في كل يوم على مقربة من دكان

أبي أحمد الهزيل، كان يدنو منه ويتحدث إليه كلما أحسّ بالضجر، كانا يتبادلان همومهما اليومية بصدق، وكل منهما مرتاح للآخر، وإن كان يبدو على أبي أحمد أنه بمثل عمر أبي سليمان، لكنهما كانا صديقين حقيقيين، وكان حلم سليمان الكبير، أن يكون صاحب دكان مثل أبي أحمد، وأن يتخلّص من طاولته المهترئة، ستكون الدنيا وقتها صغيرة بالنسبة إليه، لن تسعه، وربما أصبحت الحياة بهيجة في عينيه، وإن كان يعلم يقيناً أن دكان أبي أحمد الصغير لا يمنح صاحبه أي مبلغ يفيض عن حاجته، ليس لأبي أحمد غير زوجته وابنه الوحيد، ومع ذلك لم يكن في وسعه أن يوفّر شيئاً من أرباحه القليلة.

لم يكن هذا يزعج أبا أحمد، إنه سعيد مرتاح في حياته، يحمد الله على نعمته في كل وقت، ولا يجد ما يتذمّر أو يشكو منه، إنه راض مقتنع بما منّ الله عليه، يعتبر عقم زوجته بعد إنجاب أحمد قدره ونصيبه، وإن كان يتمنى من أعماقه أن يزيل الله عنها عقمها، لتنجب له كثيراً من الأولاد.

تناول أبو أحمد حذاء ابنه الجديد، الملفوف بجريدة قديمة، وخرج من دكانه يريد إغلاقه.

كفّ سليمان عن المناداة على بضائعه، واقترب من أبي أحمد مستغرباً، قال:

- لم يحن وقت ذهابنا بعد يا أبا أحمد..

قال أبو أحمد وفي داخله ترفرف حمامة بيضاء:

- لا أصدّق متى أرى الفرح في عيني أحمد عندما أعطيه حذاءه الجديد، ألحّ عليّ بطلبه منذ شهر، استطعت اليوم أن أشتريه له.. الحمد لله على نعمته...

ضحك أبو أحمد مغتبطاً، أزاح الجريدة عن الحذاء، وقرّبه من سليمان، وقال:

- أنظر سليمان.. إنه جميل مثل عنقود العنب.. أليس كذلك؟ سيفرح به كثيراً...

تأمله سليمان جيداً، أجابه:

- أجل يا أبا أحمد.. إنه جميل.. أرجو أن يبلى لتشتري له غيره..

أحكم أبو أحمد لفّ الحذاء بالجريدة، أغلق دكانه، والتفت إلى سليمان قائلاً:

- أراك غداً بخير يا أبا السّلم...

أجابه سليمان:

- وأنت بخير يا أبا أحمد..

بقي سليمان وحيداً، عاد إلى طاولته، لم تكن به رغبة في أن يعود إلى المناداة على بضائعه، شعر بالوحدة في غيبة أبي أحمد عنه، تأمّل البضائع القليلة المصطفة على طاولته الصغيرة، طال تأمله لها.. بعد قليل سيحملها ويعود بها وحيداً إلى غرفته، تمنى لو كان فيها من ينتظر عودته، من يشتاق إليه، من يقول له:

- أطلت غيبتك...

تمنى من أعماقه لو كان في غرفته من يحاسبه لتأخره، لن يغضب إن صرخ في وجهه، لن يحتج، سيكون سعيداً بوجود من يهتم به، من يغسل له ثيابه ويعتني بتسوية فراشه، ويعدّ له الطعام. أحسّ سليمان أنه غريب حتى عن نفسه، وأنه قشرة مرمية لا يهتم بها أحد، قال:

- إلى متى تستمر الأمور هكذا؟...

زفر بضيق، أحسّ بالاختناق.. قرر أن يعود إلى غرفته..

من بعيد لمح أبا مصطفى قادماً باتجاهه، ارتاح قليلاً، وجد من يستطيع أن يتحدث إليه باطمئنان، إنه يرتاح له كما يرتاح لأبي أحمد..

* * *

دخل أبو أحمد بيته، وقد خبّأ لفّة الحذاء وراء ظهره، تركت زوجته رتق جورب ابنها، غمزها أبو أحمد قبل أن تنهض، فهمت منه أنه يريدها أن تبقى ساكتة، لم تقل شيئاً، لكن الفضول كان ينتابها لمعرفة ما يرمي إليه.

كان أحمد وراء طاولته الصغيرة مشغولاً بدروسه، وإلى جانب قدميه، تحت الطاولة، كرته المطّاطية الصغيرة، وقف أمامه، قال:

- خمّن ماذا أحضرت لك؟..

رفع أحمد رأسه، نظر إلى أبيه في شغف، أسند رأسه إلى يديه، فكّر قليلاً، لم يهتد إلى شيء، أنزل يده، ومال برأسه قليلاً مع حركة من شفتيه وكتفيه تعني أنه لم يحزر، ثم قال:

- لا أدري...

كانت أمه تراقبهما بغبطة، قام أحمد، ركض إلى أبيه، وقد أدرك أنه يحمل شيئاً يخصه بيديه المخبّأتين وراء ظهره، أحاط خصر أبيه وقال في شوق ولهفة:

- أرني يا أبي.. أرني..

حاول أبو أحمد أن يبتعد قليلاً عن ابنه، كان أحمد متشبّثاً به كالأخطبوط، لم يقدر أن يفلت منه، رفع يديه بلفّة الحذاء، وقال بنشوة:

- انظر يا أحمد...

قفز أحمد رافعاً يديه، لم يقدر أن يصل إلى لفّة الحذاء، قال متوسلاً:

- أخبرني يا أبي أرجوك..

قالت أمه وكأنّ ما جاء به زوجها يخصّها:

- لا تعذّبه يا أبا أحمد...

خفض أبو أحمد يديه بالحذاء، أزال اللّفة عنه، وقدّمه إليه:

- أنظر يا أحمد.. إنه حذاء جديد لك...

أخذه أحمد وهو يقفز فرحاً، تأمله معجباً، مسحه بكمّه، قلّبه بين يديه، قال غير مصدّق:

- حذاء لي؟

بصق عليه ثم مسحه بمؤخرته، فكّ شريطه، وبدأ يُدخل رجليه فيه..

جلس أبو أحمد إلى جانب زوجته سعيداً مرتاحاً، قالت وما زالت تتأمل فرحة ابنها:

- فرح به كثيراً..

نظر أبو أحمد إلى ابنه، كان يمدّ رجليه بالحذاء وهو يتأمله في حب وشوق، قال لزوجته متحسراً:

- كان عليّ أن أشتريه له منذ زمن..

ثم سكت قليلاً وأضاف:

- ولكن لم يكن بيدي..

قالت الزوجة لابنها:

- عقبى للبذلة يا أحمد...

التفت أبو أحمد إلى ابنه، سأله:

- هل أعجبك؟

أجابه أحمد فرحاً دون أن ينظر إليه:

- إنه يعجب ابن ملك.. سيغار منه رفاقي في المدرسة.. سيحسدونني..

نهض، ومشى بحذائه مختالاً، وهو لا يشبع من النظر إليه، ثم نقر به الكرة..

ضحك أبوه، قال:

- إنه يحتاج إلى حذاء من حديد..

قالت له أمه:

- كفاك ضجيجاً.. عد إلى دروسك.. لن تنجح إن صرت كسولاً..

أكّد أحمد لأمه:

- سأنجح.. وسأصبح طبيباً مثل الطبيب الذي فحص رجلي..

سأله أبوه:

- هل تؤلمك رجلك؟

رفع أحمد رأسه بغير اهتمام وقال:

- لا يا أبي.. لا تؤلمني..

اغتمّت زوجته قليلاً، سألته هامسة:

- ستذهب غداً إلى الطبيب؟..

هزّ رأسه:

- أجل.. غداً تظهر نتيجة التحليل.. سنعرف سبب ورم رجله..

كفّ أحمد عن لعبه، اقترب من أبيه وفي عينيه رجاء وتوسّل:

- عليّ أن أدفع غداً عشر ليرات من أجل الرحلة.. سنقوم بها يوم الجمعة القادم..

قالت أمه:

- وفّر على أبيك هذا المبلغ.. يكفيك الحذاء الآن...

قال أحمد وفي حلقه غصّة:

- كل رفاقي سيشتركون في هذه الرحلة.. لماذا تريدون حرماني منها؟..

يعرف أبو أحمد أن دموع ابنه رخيصة وسهلة، قال له مطمئناً:

- سأعطيك المبلغ غداً، قبل ذهابك إلى المدرسة..

قفز أحمد فرحاً:

- شكراً يا أبي.. شكراً يا أبي..

* * *

في اليوم التالي دخل أبو أحمد بيته مهزوماً دامع العينين، هرعت إليه زوجته، سألته:

- ذهبت إلى الطبيب؟..

هزّ لها رأسه دون أن ينظر إليها..

سألته في رعب:

- ماذا قال؟..

أجابها باستسلام قاتل:

- رجل أحمد مصابة بالسّرطان يا أم أحمد..

شهقت، لم تصدّق، أرادت أن تتأكّد ممّا سمعت، سألته في رعب:

- ماذا تقول؟..

أجابها مقهوراً:

- ينبغي أن تقطع رجله.. سيموت إن لم نفعل له ذلك..

صرخت باحتجاج وألم:

- لا.. لا.. لا يمكن أن يكون هذا.. الطبيب يكذب.. هذا غير صحيح.. إنه يكذب.. يكذب يا أبا أحمد.. لا تصدّقه.. قل إن هذا غير صحيح...

قال باستسلام ويأس وهو مغمض العينين:

- هذه هي الحقيقة يا أم أحمد.. يجب انقاذه من الموت.. إنه في خطر.. ينبغي أن لا نتأخر في إجراء العملية كما قال الطبيب..

كادت تتهاوى على الأرض.. أمسك بها.. جرّها إلى مقعد قريب.. ارتمت عليه منهارة، بقي رأسها متأرجحاً لفترة وهي مغمضة العينين دامعة، تحدث إليها.. ضرب خدّيها برفق.. سوّى جلستها، وأسند رأسها..

فتحت عينيها بصعوبة.. قال لها باستسلام:

- أنت مؤمنة بالله يا أم أحمد..

قالت من خلال دموعها:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. من أين أتتنا هذه المصيبة؟..

ثم اعتدلت في جلستها، قالت له وهي تبلع ريقها:

- لماذا لا تذهب إلى طبيب غيره يا أبا أحمد؟..

أجابها وقد ابتعد عنها قليلاً بعد أن اطمأن إلى سلامتها:

- لا يختلف أحدهم عن الآخر يا أم أحمد..

قالت في خيبة ويأس:

- يتشابهون حقيقة.. إنهم كالمنشار.. يأكلون في الطّالع والنّازل..

ابتعد عنها قليلاً كأنه يريد أن يختلي بنفسه، قالت في حرقة:

- سيقضي عمره برجل واحدة.. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله..

قال ملتاعاً مستسلماً:

- هذا خير من أن نفقده على كل حال..

ما زالت غير قادرة أن تقف، ضربت كفاً بكف، هوت بثقل يديها على رجليها، تأرجح رأسها عدة مرات، وقع غطاء شعرها، قالت في حسرة:

- إنها عين يا أبا أحمد.. قد أصابته عين.. هذا أكيد..

ليتني وضعت له الخرزة الزرقاء.. قلت لك ذلك ولم تسمع مني.. لا حول ولا قوة إلاّ بالله.. من أين أتتنا هذه المصيبة؟..

ثم التفتت إلى زوجها، كانت تبحث عن قشّة تتعلق بها، قالت متوسلة:

- اذهب إلى غير هذا الطبيب يا أبا أحمد. افعل ما أقول لك أرجوك..

أجابها في يأس:

- قلت لك لا يختلف أحدهم عن الآخر. ستكون خسارة نحن في غنى عنها..

كان أبو أحمد يعتقد أنه يعيش مع زوجته وابنه بدون همّ، لم يخطر له في يوم ما أن تحلّ به هذه النّازلة، كان يأخذ الأمور ببساطة دون أن يفكر في أية مصيبة قد يتعرّض لها.. كانت الدنيا في عينيه سهلة مثل البساط الذي يجلس عليه، لم يصعد حتى ينزل، لم يصطدم في حياته كلها بأحد، لم يغضب الله، لم يكن خصماً لأي إنسان، كان هيّناً ليّناً في تعامله مع الآخرين، يتبع المثل القائل (كن مع الذي لا يكون معك)، كان مرتاحاً، تفيض منه السعادة رغم قلّة يده، لم تكن سعادته في أن يجد المال بين يديه.. سعادته في ابتسامة حلوة يراها تزهر في وجهي زوجته وابنه، هذا أقصى ما كان يتمناه.. حدوده محصورة في بيته ودكانه، هذه دنياه، لم يكن يتجاوزها قط، كان مقتنعاً بها، وكان يدعو في سرّه أن يطيل الله عمره، حتى يتمتع بشباب ابنه ورجولته بعد أن يكبر... كيف يستطيع أن يراه برجل واحدة؟.. لماذا هو دون سائر الناس؟.. ما ذنبه؟.. تمنى أن تعمى عيناه قبل أن يحصل هذا.. ليت رجله ولا رجل ابنه.. بل ليت رجليه وذراعيه أيضاً.

انتزعته زوجته من أفكاره، سألته ساهمة ذاهلة:

- لا بد منها يا أبا أحمد؟..

قال مهموماً دون أن ينظر إليها:

- هذه مشيئة الله يا أم أحمد.. ينبغي أن نعجّل في إجراء العملية كما قال الطبيب، الخطر يداهمه سريعاً، إن لم يكن في الغد، فبعد غد على الأكثر...

صمتت زوجته، سألته بعد قليل:

- هل عرفت تكاليف العملية؟.. هل سألت الطبيب؟..

أجابها بانكسار:

- يلزمنا أكثر من عشرة آلاف ليرة..

شهقت في فزع:

- ماذا تقول يا أبا أحمد؟.. من أين لنا هذا المبلغ؟..

لم يجبها، بقي ساهماً، لا يعرف ماذا عليه أن يقول، أضافت باحتجاج ساخط:

- ألم تخبره بأننا فقراء لا نملك المال؟..

لم يجد في نفسه القدرة على أن يضحك مما قالت، اكتفى بأن قال مؤكداً:

- الطبيب مثل الموت، لا يفرق بين غني أو فقير يا أم أحمد..

ازداد احتجاجها وسخطها:

- هل ينبغي للفقير أن يموت؟..

أصبحت لديه الآن قناعة بأن الفقير لا يعيش أبداً، وإن كان يتنفس ويمشي، إنه ميت في الحالين.. لماذا تبدّل حاله فجأة؟.. لماذا حكم عليه بالقهر؟.. يعرف أنه لا يستأهل كل هذا، إنه فوق طاقته، فوق قدرته على التّحمل، شعر بأنه يعيش في مصيدة، وأنّ كل ما حوله لزج دبق، وأنه لا يستطيع التخلّص ممّا علق به، حتى وإن أبدل جلده، هذا قدره إذن، مكتوب عليه منذ ولادته، حمله معه طوال هذه السنين دون أن يدري، عليه الآن أن يتحمّل قدره، وأن يقتنع به، ما دام لا يستطيع الفرار منه.

سألته زوجته:

- من أين لنا المال يا أبا أحمد؟..

لم ينظر إليها، أجابها بصوت تمنى أن لا تسمعه:

- لا مفرّ من بيع الدكان.. وقد لا يكفي ثمنه.. إنه صغير في زقاق ضيّق كما تعلمين...

سمعته جيداً، شهقت فزعة غير مصدقة:

- تبيع الدّكان؟ . . .

هزّ رأسه، وما زال مطرقاً:

- ليس باليد حيلة يا أم أحمد. . هذا خير من أن نفقده. . .

يعرف أنه سيبدأ من جديد، سيقف وراء طاولة صغيرة إلى جانب سليمان وينادي على بضائعه: سيعود إلى ما كان عليه من قبل، شقاء عمره كله يضيع في غمضة عين، وستعود زوجته أيضاً إلى العمل في بيوت الناس، هذا لن يهمّه إن استطاع ابنه أن يقفز برجل واحدة.

نهض وقال:

- سأذهب لأبيع الدّكان، سيشتريه جاري، عرض عليّ ذلك غير مرة. .

وقبل أن يفتح الباب، التفت إليها وقال:

- عندما يعود أحمد من مدرسته، لا تخبريه بالعملية. . سنجريها له غداً دون أن يعرف شيئاً. .

ثم ذهب، وتركها في جهلها وحيرتها. . .

* * *

ما ينفكّ شنكل في كل مرة يحاول إغراء سليمان باللعب، وفهيم من ورائه، يمدّ رأسه الكبير إلى سليمان ويشجعه.

كان سليمان يشعر في كل مرة بغضب يتملّكه، لا يريد أن يدخل في عراك مع شنكل، لأنه يعرف شراسته، كان يحاول وهو يكبت غيظه، إقناعه بأن يدعه وشأنه، وأن يبحث عن غيره، وكان فهيم يتهمه بالبخل دائماً، وبأنه يجمع النقود التي تفيض عن حاجته دون أن يمتّع نفسه بنعم الدنيا، وبأنه مثل أي إنسان محروم لا يملك شيئاً، كان يؤكد باستمرار، أنه لو كان يملك هذا المال لعرف كيف ينفقه على نفسه، لن يكون بخيلاً مثل سليمان، لن يحرم نفسه شيئاً يمتّعه ويبهجه، وفي كل مرة كان يضيف مع شنكل مؤكدين أنهما ينفقان في كل يوم جميع ما يحصلان عليه، لأنهما يؤمنان كما يقولان بالمثل القائل: (اصرف ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب).

كان سليمان يفكر باستمرار في ثرثرة فهيم، كان يدافع عن نفسه فيما بينه وبين نفسه، ويقول بقناعة وإصرار: لست بخيلاً كما يزعم فهيم الغبي، إنني حريص على مالي، لا أبدّده، لقد عانيت من التعب والعرق، لم أجمع بضع مئات الليرات بسهولة، مضت عليّ سنوات طويلة قاسية وأنا وراء طاولتي الصغيرة القذرة أنادى على بضائعي القليلة كل يوم بصوت مبحوح، صحيح أنني أحرم نفسي بعض الأشياء التي أعتبرها الآن غير جديرة بالاهتمام، لكنني في مقابل ذلك أدرك أنه سيأتي يوم أعوّض فيه على نفسي كلّ ما فاتها، ستمضي سنتان أوثلاث وأنا على هذه الحال، إلى أن يكون في استطاعتي أن أقف معافى سليماً على رجلي، إلى أن أجمع مبلغاً من المال يمكّنني من استئجار دكان صغير مثل دكان أبي أحمد، عندها، لن أحرم نفسي شيئاً أقدر عليه، سيكون المال نهراً يجري بين يديّ لا شك، وسأجد بيتاً لائقاً بي، وإن كان صغيراً، وسأفكر في الزواج، وفي أن يكون عندي جيش من الأطفال يملأ عليّ فراغ يومي، عليّ الآن إذن أن أصبر وأتحمّل، وأهزم التعب، لن أردّ على ثرثرة أحد، لن يثيرني تحدّي فهيم وشنكل. . أعرف أنهما في غيظمني، قريباً سأدخل حياة جديدة من باب عريض، تنسيني تعبي وشقاء يومي.

شعر سليمان بغبطة، كان مقتنعاً تماماً بوجهة نظره هذه، في يوم ما سيصبح صاحب دكان مثل أبي أحمد، هذا ليس بالقليل، لن يكون في إمكان شنكل المحتال، وفهيم الغبي، أن يكونا مثله، إنه يفكر في غده، وهما لا يفكران في غير يومهما، سيأتي يوم كما تأكّد له، يندمان فيه على ما يفعلانه الآن.

اقترب شنكل من سليمان يتبعه فهيم، توقف عن ندائه على بضائعه، وأخذ حذره منهما. . وصلا إليه. . لم يكن بيد شنكل ورق اللعب هذه المرة، استطاع سليمان أن يتبين بوضوح وجهه المتغضّن، ومع هذا بقي في حذر منه، سأله شنكل وهو ينظر إلى دكان أبي أحمد المغلق:

- سمعت أن أبا أحمد قد باع دكانه. . صحيح هذا يا أبا السلّم؟. .

لأول مرة يسمعه يناديه بود، اطمأن قليلاً، هدأت نفسه، هزّ رأسه وهو يلتفت إلى دكان أبي أحمد المغلق:

- أجل باعه وقبض ثمنه قبل قليل. .

سأله شنكل وما زال متغضّن الوجه:

- من أجل عملية رجل ابنه؟. .

هزّ سليمان رأسه مرة أخرى، وقال:

- ولن يكفيه المبلغ من أجل العملية . .

سأله شنكل وهو ينظر إليه بتركيز :

- هل أخبرك كيف سيتدبر بقية المبلغ ؟ . .

أجاب سليمان قلقاً :

- لم يخبرني شيئاً يا شنكل . .

يدرك فهيم جيداً رغم غبائه ، أن عليه أن يبقى صامتاً في مثل هذا الموقف ، كان ينظر إلى شنكل ، ثم إلى دكان أبي أحمد المغلق ، وكان في لحظات قصيرة جداً يسرق نظرة سريعة إلى قطع الحلوى المرتبة بعناية على طاولة سليمان ، ويتمنى لو كان في إمكانه أن يغافلهما ويخطف قطعة ، لكنه يخشى غضب شنكل إن فعل ذلك ، لم يسبق له أن أغضبه ، وهو يراه الآن في موقف جاد على غير عادته ، وقد حفظ طبيعته ، لن يغفر له إن سرق قطعة حلوى من طاولة سليمان . . . بقي فهيم في حسرته وهو يراقبهما ، كانت تلحّ عليه رغبة في أن يقول :

- إن كانوا سيقطعون رجل أحمد ، فلماذا لا يدفعون لأبيه ثمنها ؟ . .

وكان بوده لو يطلب من شنكل ملاعبة الطبيب ليربح منه أجر العملية ، فهو يعرف أسلوب شنكل في لعب الورق ، إنه لا يخسر أبداً .

لم يجسر أن يتحدث بما في نفسه ، حتى أنه رغب في أن يعرض على شنكل أن يقوما بسرقة مخزن ، أو بيت مترف ، ليقدما ثمن ما يحصلان عليه إلى أبي أحمد ، حتى يتمكن من دفع أجر العملية كاملة ، ولربما استطاع في هذه الحالة أن يعيد مخزنه إليه أيضاً .

تنبّه فهيم لشنكل وهو يشير إليه بالذهاب ، وقد لاحظ قسوة ملامحه ، تبعه بسرعة ، وما زالت في نفسه حسرة لأنه لم يخطف قطعة حلوى من طاولة سليمان .

بقي سليمان وحيداً ، كانت الكآبة تتوغّل في أعماقه ، التفت إلى مخزن أبي أحمد المغلق ، تساءل عمّا إذا كان في إمكانه أن يتحدث إلى صاحبه الجديد كما كان يتحدث إلى أبي أحمد . . أحسّ بغصّة في حلقه منعته من متابعة أفكاره ، بلع ريقه . . تملّكه يأس قاتل ، من يضمن له أن يعيش سنتين أو ثلاثاً حتى يجمع المبلغ الذي يمكّنه من شراء دكان له ، مثل دكان أبي أحمد كما كان يحلم ؟ . . أبو أحمد قضى أكثر من نصف عمره وهو يلهث ، حتى استطاع أن يستأجر هذا الدكان ، وهو الآن يتنازل عنه مقابل مبلغ لن يكفيه لذبح رجل ابنه ، أية حياة هذه ؟ . . ما أضيع العمر ، يشقى الإنسان ، يتعب ، يعرق ، يجوع ، يعرى ، مقابل شيء يفقده في لحظة ، لم تكن تخطر له ببال .

بصق بقرف . . أحسّ برغبة في أن يتقيّأ ويلوّث العالم كله . . في أن يسكب عليه نفطاً ويحرقه ، قرّر أن هذا العيش لا يمكن أن يسمى حياة ، إنه مع أبي أحمد وكثيرين غيرهما ، ليسوا غير دمى ثلجية تذيبها حرارة الشمس في أية لحظة تسطع فيها دون إعلان ، ولن يكون في إمكان أيّ منهم أن يخفّف من حرارتها . . ولا أن يجمّد الثلج في قلبه ، ستسيل أنهار كثيرة قبل أن يحلّ فصل الربيع .

أدرك أن دوره جاء الآن ليذوب تحت حرارة الشمس ، لن يقاوم ، يعرف يقيناً أن المقاومة لن تجدي . . إنه يستسلم ، يفتح ذراعيه لحرارة الشمس بإرادته ، حتى تذيبه قطرة قطرة ، لا بأس ، سيأتي يوم يتجمّد فيه ثلج قلبه من جديد ، وإن كان أمره سيطول ، لكن هذا اليوم سيأتي . . سيأتي لا محالة ، عندها يستطيع أن يتفيّأ ويهرب من حرارة الشمس ، ويستظلّ بشقاء عمره كله دفعة واحدة ، دون أن يقسّطه كما يفعل الآن .

رفع طاولته الصغيرة ، وضعها على رأسه ، وسار بها دون أن ينادي على بضائعه .

* * *

بكى أحمد عندما أخبرته أمه أنه لن يشترك مع رفاقه في الرحلة غداً ، وعليه أن يسترد رسم اشتراكه فيها ، لأنه سيذهب غداً إلى الطبيب مع أبيه ، عبق وجهه ، احتقن ، رأى رفاقه يسخرون منه ويشمتون به .

سبق لهم أن تهامسوا كثيراً فيما بينهم ، وأكدّ بعضهم لبعض أن أباه لن يعطيه عشر ليرات ليشترك معهم في الرحلة ، وعندما دفع الرسم ، كان يشعر بأنه لا يقلّ عن أيّ واحد منهم يمتلك أبوه مالاً كثيراً ، كان سعيداً بخيبتهم ، منفوخاً كالطاووس ، وكان يعتزم أن يأخذ معه عدة أنواع من الطعام تحضّره له أمه ، يريد أن يظهر أمامهم ، أنه مثل أيّ واحد منهم ، لا يبخل عليه أبوه بشيء ، وسيختال بينهم بحذائه الجديد ، وإن كان يعرف أن أمه ستنصحه بعدم لبسه في الرحلة حرصاً عليه ، لكنه لن يطيعها ، سيتمكّن من إقناعها بقبلتين صغيرتين . . . هذا كل ما في الأمر . . . أمّا الآن ،

وبعد أن اغتالت أمه فرحته، لم يبق لديه شيء، ماذا يقول لهم؟.. لن يصدقوا أن موعد الطبيب قد ألغى اشتراكه معهم في الرحلة، سيكذّبونه لا شك، سيضحكون هازئين به، ويقولون له كما قال لأمه أن في الإمكان تأجيل موعد الطبيب إلى ما بعد غد، أكّد لأمه بإلحاح أن رجله لا تؤلمه، وأنه مجرّد ورم بسيط يزول خلال أيام، ولا حاجة لتبديد المال على الأطباء بدون فائدة.. كانت تحاول باستمرار إخفاء وجهها عنه كما لاحظ عليها ذلك، لم يتساءل عن السبب، وإن كان قد لمح دمعات عالقة بخديها، كان معميّ القلب تماماً، لم يفكّر وقتها إلاّ في أنّ هذا القرار المفاجيء قد هزم ضحكته لمدة أسبوع أو أكثر، لأنه يعرف أن أباه وأمه لا يملكان ما يعوّضه هذه الخسارة، وسيمرُّ وقت طويل جداً قبل أن يتمكّنا من منحه شيئاً يُبهجه ويجعله يشعر بأنه لا يقلّ عن رفاقه.

لم يصدّق حتى جاء أبوه، وقف أمامه يمسح دموعه، توسّل إليه أن يؤجّل موعد الطبيب، قال له أكثر ممّا قال لأمه، لأول مرة يشعر أنّ أباه عنيد حقاً، وأنّ دموعه لم تجعله ليّناً كما هي عادته، واقتنع بأنّ أباه تآمر عليه مع أمه لا شك، كانت تقف على بعد منهما، وقد خبّأت وجهها بيديها، وعندما تحرّك أبوه ليدخل الغرفة، رآه يستند إلى الحائط كما لو أنه خاف أن يقع.

بعد قليل جاء سليمان يحمل جني عمره، فتحت الباب أم أحمد، نادت زوجها، ثم مسكت يد ابنها ودخلت به الغرفة.

قال سليمان وما زال واقفاً بالباب، مادّاً يده إلى أبي أحمد بأوراق مالية:

- لن يكفيك ما قبضته من ثمن الدكان يا أبا أحمد.. لن أحتاج إلى ما وفّرته... عدلت عن استئجار دكان لي.. لن أحبس نفسي فيه.. طاولتي الصغيرة تجعلني حرّ التنقل أينما شئت...

ثم أجبر نفسه على أن يضحك، يريد أن ينفض الجمود عن وجه أبي أحمد، قال:

- أليس كذلك يا أبا أحمد؟.. اتخذت هذا القرار منذ زمن، لكنني لم أحدثك به...

يعرف أبو أحمد أن سليمان لا يقول الحقيقة، وأنه يريد أن يجعل الأمر هيّناً كشرب الماء، صحيح أن ما قبضه لقاء تنازله عن دكانه لا يكفي أجر العملية والإقامة في المستشفى، وأنه لا يملك مع زوجته شيئاً آخر يبيعانه لإتمام المبلغ، كان القلق ينتابه حقيقة، لأنه لا يعرف كيف يتدبر بقية المبلغ.. ومع هذا لم يكن يريد أن يقتل الحلم في رأس سليمان، كما أنه لا يعرف متى يقدر أن يسدّده له، سيطول الأمر كثيراً جداً لا شك، وقد لا يتمكّن من ذلك على الإطلاق، لأن دخله بعد أن باع دكانه، سيقلّ عمّا كان عليه من قبل.

قبل أن يخبر سليمان بما دار في ذهنه، وصل إليهما فهيم لاهثاً، وقف يستردّ أنفاسه، ثم مدّ يده إلى أبي أحمد بما يحمل من نقود، قال:

- باع شنكل خاتمه الذهبي وساعته، وهو الآن يبحث عمّن يشتري منه سجادة كان قد ورثها عن أمه..

لاحظ فهيم أن ملامح أبي أحمد قد تغيّرت، تذكّر ما أكده عليه شنكل، قال بتصميم وحماسة:

- لا تعتقد أنه مال حرام يا أبا أحمد.. أعوذ بالله.. إنه مال حلال والله.. كانا لأبيه قبل موته.. أنا أعرف ذلك يا أبا أحمد..

ثم غضّ من طرفه خجلاً، وأضاف:

- ليتني أملك شيئاً لأبيعه يا أبا أحمد..

وما لبث أن التفت إلى سليمان كأنه يعتذر إليه، قال في حسرة:

- لأول مرة عرفت مع شنكل أنّ القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود كما كان يقول سليمان..

* * *

وقف أحمد وخلع حذاءه الجديد، كان الأمر عادياً بالنسبة إليه لا يدعو إلى الخوف، سيفحص الطبيب رجله، ثم يحقنه إبرة تريحه من ورمها، وتطمئن أمه وأباه.. هذا كل ما في الأمر كما قال له أبوه.. فلماذا يرى الكآبة على وجهيهما؟.. هل يعتقدان أنه أصغر من أن يتحمّل غرزة إبرة؟.. يعرفان أنه اعتاد أن يأخذ مثلها في مرضه، دون أن يصدر عنه أي صوت.. لم يبك... لم يشعرهما بتوجّعه.. فلماذا يرى الشّفقة في عيونهما الآن؟... ابتسم لهما، بالغ في ابتسامته، قال:

- أنا جاهز يا أبي..

لم يجبه أبوه.. جاءت ممرضة بعربة صغيرة، أمسكته تريد أن تساعده على الاستلقاء عليها.. لم يشعر بحاجته إليها.. قفز

إلى العربة بخفة وهو ينظر إلى والديه. . سأل أباه من دون خوف:

- إلى أين يأخذونني يا أبي؟ . .

لم يجبه أبوه. . كانت الممرضة قد خرجت به. . وبقي حذاؤه الجديد إلى جانب سريره.

التفتت أم أحمد إلى زوجها، قالت ملتاعة:

- لم يهنأ بحذائه الجديد.

ثم أضافت في خوف:

- كان الله في عونه. . أخاف عليه من هذه العملية يا أبا أحمد. .

أجابها وهو يدير وجهه عنها:

- لن يشعر بشيء. . .

خرج من الغرفة إلى البهو، كان سليمان وشنكل وفهيم يقفون كتلاميذ طردهم معلمهم من الصف لذنب ارتكبوه، وهم الآن بانتظار رضائه عنهم، جلس بينهم، بقوا صامتين. . لم ينظر الواحد منهم إلى الآخر. .

* * *

سألت أم أحمد زوجها هامسة:

- متى يغادر المستشفى؟ . .

أجابها وهو يتأمل ابنه النائم في إشفاق:

- ليس قبل اسبوع كما قال الطبيب. .

ثم التفت إليها. سألها:

- هل استيقظ في غيبتي؟ . .

هزّت له رأسها، قالت:

- كنت أتوقع أن يبكي عندما يعرف. .

ارتاح أبو أحمد، كأنّ دكانه عاد إليه، فرح لأنه ربح ابنه، كان يخشى عتابه ولومه لأنه لم يخبره بالحقيقة، نهض يريد أن يذهب، رأى ابتسامة لا تريد أن تفلت من عينيها. . . سألها:

- ماذا في الأمر يا أم أحمد؟ . .

أجابته وقد اتّسعت ابتسامتها حتى كادت أن تتحوّل إلى ضحكة:

- قال إنه أصبح يوفّر عليك ثمن نصف الحذاء. .

حبس ضحكته، خاف أن توقظه من نومه، قال هامساً:

- رضى الله عنك يا أحمد وأسعدك في حياتك. .

عقّبت زوجته:

- أرجو أن لا يتخلّى الله عنه أبداً. .

قال:

- سأذهب إليهم. . إنهم ينتظرونني. . في المساء أعود. .

سألته باهتمام:

- من هم يا أبا أحمد؟ . .

قال:

- سليمان، وإبراهيم، وفهيم. .

استغربت، لأول مرة تسمع زوجها يتكلم عن «إبراهيم»، قالت:

- أنت لا تعرف أحداً باسم إبراهيم يا أبا أحمد. .

تنبه لنفسه، وجد الآن تفسيراً لاستغراب زوجته، قال موضّحاً لها:

- عاد شنكل إلى اسمه الحقيقي يا أم أحمد. . إبراهيم هو اسمه. .

ثم أضاف مستدركاً:

- لم يعد إلى اسمه الحقيقي فحسب. . بل ارتدى جلده الذي خرج منه من قبل أيضاً. . .

* * *

من يراهم الآن يحسب أنهم يعتزمون أن يطيروا قريباً. . . ثلاث طاولات صغيرة متشابهة مصطفة إلى جانب بعضها البعض، وراء كل واحدة منها وقف صاحبها. .

كانت حسرة فهيم كبيرة لأنه لم يتمكن من شراء واحدة له. لكنهم وعدوه أن يشتروها له في الأسبوع القادم، كان يشاركهم في ندائهم على بضائعهم وهو ينتقل بخفة ونشاط من طاولة إلى أخرى يرتّب ما عليها بعناية. .

كانوا ينادون على بضائعهم المتشابهة بغير نظام. . . تبادلوا النظرات. . كان عليهم أن يكونوا شخصاً واحداً. . بدأت أصواتهم منذ هذه اللحظة تنتظم في نداء واحد:

- شفرات. . . سكاكين. . . دبابيس. . . إبر. . . خيطان. . .

وكان واضحاً لهم ولمن يسمعهم أن صوت إبراهيم يعلو على أصواتهم. . .